

بعض مظاهر الحضارة العربية الإسلامية في جزيرة صقلية

د. فائق بكر الصّوّاف

جامعة الملك عبد العزيز
مكة المكرمة

تقع جزيرة صقلية في الحوض الاوسط من البحر المتوسط . وهي ذات موقع ممتاز من الناحيتين الحربية والتجارية ، اذ انها تتحكم في الاتصال بين الحوضين الشرقي والغربي لهذا البحر . وقد غلب على الجزيرة الطابع الحربي ، فاکثر مدنها شيدت على رؤوس الجبال على شكل قلاع أو حصون ، ومن أهم هذه المدن بلرم التي كانت قسبة الجزيرة ، وسرقوسة . يضاف الى ذلك ان صقلية تمتعت بخيرات كثيرة لكثرة انهارها وعيونها ومعادنها (١) .

فتح صقلية :

اتجهت انظار المسلمين منذ العصر الاسلامي الاول صوب جزيرة صقلية لانها كانت قاعدة الروم البحرية يغيرون منها على سواحل ومدن البحر المتوسط . وكانت اولى محاولات غزو جزيرة صقلية في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما ارسل معاوية بن ابي سفيان - والي الشام - قائده معاوية بن حديج الكندي عام ٣٤ هـ/ (٦٥٤) م على رأس عدة سفن لمهاجمة صقلية . ووصل معاوية بن حديج الى صقلية واحرز عدة انتصارات على الحامية البيزنطية في الجزيرة وعادت سفنه محملة بالغنائم والاسرى (٢) . وتتابعت الغزوات الاسلامية بعد ذلك على صقلية ، ولكنها لم تؤد الى الاستقرار بالجزيرة بقدر ما كان هدفها الاغارة ، فلم يترتب عليها سوى الحصول على الغنائم والعودة بأصناف من ذهب وفضة مكلفة بالجواهر على حد تعبير البلاذري (٣) .

(*) أعد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ١٦-٢٢ جمادى

الآخرة ١٤٠١ هـ / ٢٠-٢٦ نيسان ١٩٨١ م

وبعد ان استتب الامر لولاة افريقية ، واسسوا مدينة القيروان ، واقاموا في تونس دارا للصناعة (صناعة السفن) فكروا في غزو جزيرة صقلية . ومما شجعهم على ذلك قرب الجزيرة من شاطئ شمال افريقية وما نعمت به تلك الجزيرة من خيرات وثمار ، وكذلك انشغال اباطرة الدولة البيزنطية بمشاكلهم الداخلية مما ادى الى اهمالهم امر الجزيرة وبالتالي ضعف الحامية البيزنطية بها . على ان اغارات المسلمين على صقلية لم تتصف بصفة الاستقرار في هذه المرحلة لصعوبة ارسال الامدادات الى المحاربين (٤) .

واستمر هذا الوضع قائما حتى عام ١١٦ هـ / (٧٣٤ م) ففي هذا العام جهز عبيد الله بن الحبحاب جيشا واسطولا كبيرين وجههما الى صقلية . ولم تلبث ان دارت معركة كبيرة بين الاسطولين البيزنطي والاسلامي وكان النصر حليف الاسطول الاسلامي مما اعطى لابن الحبحاب ثقة كبيرة في مدى قوة الاسطول الاسلامي وهذا ما جعله يفكر جديا في غزو جزيرة صقلية وفتحها والاستقرار بها (٥) .

وجهاز ابن الحبحاب عام ١٢٢ هـ حملة كبيرة وضع على راسها القائد حبيب ابن ابي عبيدة ابن عقبة بن نافع ومعه ابنه الجصور عبد الله بن حبيب فنزل ارض صقلية وظل يقاتل ويجاهد حتى اذعن الروم لعقد الصلح ، وبدلوا في سبيله جزية كبيرة للمسلمين . وعزم حبيب وابنه عبد الله على البقاء في صقلية وانجاز فتحها ، غير ان سوء الاحوال في افريقية اضطرهما الى العودة (٦) .

وعاود عبد الرحمن بن حبيب الفهري واخوه عبد الله الكرة لغزو صقلية ، التي كان الروم قد حصنوها ، وانشأوا بها اسطولا بغرض مهاجمة مراكز المسلمين وسفنهم . وعلى الرغم من ان ابن حبيب نجح في تحطيم كثير من سفن الروم ، الا انه عاد بخفي حنين مكتفيا بالغنائم . وبعد ذلك لم تتعرض جزيرة صقلية لخطر المسلمين لمدة تزيد عن خمسين عاما .

ثم قامت دولة الاغالبة في تونس بماثرتها الخالدة على صفحات الوجود الا وهي فتح صقلية ونصب الوية الاسلام فوقها عالية خفاقة . وقصد الاغالبة من فتح تلك الجزيرة تمهيد السبيل لفتح البلاد الاوروبية ومهاجمتها من الوسط بعد ان اخفق المسلمون في الهجوم عليها شرقا وغربا ، ومحاولة قطع دابر القرصنة البيزنطية التي اتخذت صقلية مركزا لها (٧) .

وحدث في عام ١٩٠ هـ / ٨٠٥ م ان عقد ابراهيم بن الاغلب مؤسس دولة الاغالبة هدنة لمدة عشر سنوات مع حاكم صقلية (٨) . وبعد وفاة ابراهيم جدد خليفته ابو

العباس عبد الله الاول (١٩٦ - ٢٠١ هـ) ذلك الصلح في عام ١٩٨ هـ / ٨١٣ م . وفي سنة ٢٠١ هـ / ٨١٦ م تولى حكم دولة الاغالبة زيادة الله بن ابراهيم ، وهو الذي وصل حكم الاغالبة في عهده اقصى درجات الاستقرار ، وتم فتح صقلية .

ففي عام (٣١١ هـ / ٨٢٦ م) جاءت زيادة الله فرصة ذهبية من داخل جزيرة صقلية للقيام بفتحها . فتروي المصادر العربية انه وفد على زيادة الله بن ابراهيم الاغلب القائد البيزنطي (افيميوس) مستصرخا ومستنجدا به ضد بعض المنافسين له . وتفصيل ذلك : انه حدث في عام ٢١١ هـ / ٨٢٦ م ان حاكم صقلية قسطنطين عهد الى القائد افيميوس بقيادة الاسطول ومهاجمة شواطئ افريقية وقام افيميوس بمهمته خير قيام ، وعاد الى صقلية . غير ان افيميوس وقع في خطأ فاحش عندما اختطف احدي الراهبات وتزوج بها ووصل ذلك الى اسماع الامبراطور البيزنطي ، الذي امر قسطنطين بالقبض على قائد الاسطول (افيميوس) وارسله الى القسطنطينية لمحاكمته . وعندما علم افيميوس بذلك رفع راية العصيان ، واستقل بمدينة سرقوسة (سيراكوز) غير ان احد قادته (يدعي بلاطه) ما لبث ان ثار عليه وانزل به هزيمة ساحقة اضطر معها افيميوس الى التوجه الى تونس طالبا مساعدة زيادة الله بن الاغلب واعدا اياه « بملك جزيرة صقلية » (٩) .

وجمع زيادة الله وجوه اهل القيروان وفقهاءها وفيهم القاضي اسد بن الفرات واستشارهم في الامر وانتهى الامر بضرورة فتح جزيرة صقلية ونشر الاسلام فيها (١٠) .

ولم تلبث ان جاءت الاخبار الى افيميوس بأنه تقرر مساعدته ، وامر بالتوجه الى مرسى سوسة والانتظار به الى حين وصول الاساطيل الاسلامية .

وبعد ان اتم زيادة الله اعداد جيش قوي ، قوامه عشرة آلاف مجاهد وسبعمائة فارس عهد بقيادته الى قاضي القيروان اسد بن الفرات وتجمعت السفن في ميناء سوسة ، لتحمل ذلك الجيش الى صقلية وكان ذلك الجيش مكونا من العرب والبربر والفرس والانديسيين . وفي يوم السبت الموافق الخامس عشر من ربيع الاول عام ٢١٢ هـ / (٨٢٧) م اقلعت الحملة وفي معيتها افيميوس متجهة نحو صقلية ، حيث وصلوا الى مدينة (مازر) احدي مدن صقلية . وتقابل جيش المسلمين مع جيش القائد (بلاطه) الذي مني بالهزيمة وفر هاربا ، في حين « غنم المسلمون اموالهم ودوابهم » على حد قول المؤرخ ابن الاثير (١١) . وتابع الجيش الاسلامي بقيادة اسد بن الفرات زحفه داخل صقلية ، فاستولى على بعض الحصون المنيعه ، وضرب الحصار على مدينة سرقوسة واستطاع ان يضيق عليها الخناق ويحرق سفنها ويقتل جماعة

من اهلها مستعينا بامداد من افريقية والاندلس . وحدث ان وصل اسطول بيزنطي من القسطنطينية لنجدتها ، فضلا عن ان الوباء تفشى في المسلمين ومات من جرائه كثيرون منهم اسد بن الفرات نفسه (١٢) .

ثم ما لبث ان تولى محمد بن ابي الجواري قيادة الجيش الاسلامي بصقلية بعد وفاة اسد بن الفرات . وعدل ابن ابي الجواري عن فكرة العودة الى افريقية وصمم على البقاء بصقلية ومعاودة القتال من جديد . فبدأ باحراق سفن الاسطول البيزنطي المحاصر لصقلية ، وساعده في ذلك نجدات بحرية من القيروان . كما اشتد في قتال البيزنطيين حتى استطاع الاستيلاء على حصن جرجنت ، مما ترتب عليه ارتفاع الروح المعنوية في الجيش الاسلامي بهذا الفتح الجديد (١٣) .

وهكذا تحمس افراد الجيش الاسلامي لاستكمال فتح حصون صقلية ، واخذوا في احكام الحصار على تلك الحصون المختلفة ، وسقطت هذه القلاع والحصون واحدة تلو الاخرى في ايدي المسلمين على الرغم من الامدادات المتواصلة من القسطنطينية فسقطت (بالرمو) عام ٢١٦ هـ (وقلورية) عام ٢٢٥ هـ ، وفتحت (قصر يانة) ٢٤٤ هـ وقلعة (بلاطو) ٢٤٦ هـ (ومسيني) عام ٢٦٥ هـ (١٤) . وهكذا دانت صقلية للعرب بعد ان كانت تحت حكم الامبراطورية البيزنطية . وكان النصر حليف الاسلام الذي امتد سلطانه عام ٨٤٦ م الى رومية نفسها ، وذلك على حد قول المؤرخ الانجليزي سنجر (١٥) .

الحضارة الاسلامية في جزيرة صقلية

حكم العرب جزيرة صقلية في الفترة الممتدة من عام ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م حتى عام ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م . والواقع ان الحكم العربي لصقلية مر بفترتين او مرحلتين اولاهما حكمت فيها صقلية من قبل ولاة الاغالبية حكام افريقية ، وامتدت من سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ حتى ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م . وثانيتهما : حكم صقلية خلالها ولاة من قبل الخلفاء الفاطميين ، وامتدت من عام ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م الى سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م . واصبحت جزيرة صقلية مركزا هاما من مراكز الحضارة الاسلامية فما هو السر وراء ذلك التيار الحضاري الجارف الذي نعمت به صقلية في ظل الحكم الاسلامي لها ؟ لاشك في ان السر وراء ذلك هو ما اشتهر به المسلمون من حبهم للحضارة وتشجيعهم لها ، وما اشتمل عليه الدين الاسلامي من مقومات واسس حضارية وما اتسم به من تسامح مع غير المسلمين ، حيث عاش المسلمون الى جانب سكان صقلية الاصليين دون اثاره للفتن . وترك فاتحو صقلية من العرب لاهلها عاداتهم وتقاليدهم ، وقوانينهم وحرثهم الدينية المطلقة ، واكتفوا منها بجباية الجزية وكان مقدارها اقل

بكثير مما كانت عليه على عهد البيزنطيين واعفوا منها الرهبان والنساء والاولاد وحافظوا على الكنائس التي وجدوها ولكنهم لم يسمحوا بانشاء غيرها (١٦) .

كما ان العرب المسلمين لم يكونوا مثل العناصر الجرمانية البربرية مثل القوط والوندال التي انسابت داخل الامبراطورية الرومانية . وفي الوقت الذي نسمع فيه بما أحدثته اغارات الهون والوندال والقوط من تخريب شامل لكثير من اقاليم اوربا وافريقية ، اذا بالبلاد التي فتحها المسلمون واستقروا فيها تتحول الى مراكز حضارية كبرى يقصدها طلاب العلم والمعرفة من مختلف انحاء العالم المعروف وقتذاك للتزود والاستنارة . وحسبنا ان نوازن بين احوال بعض البلاد الاوروبية مثل اسبانيا وصقلية قبل فتح العرب لها واحوالها بعد استقرارهم فيها . اذ تبدلت اوضاعها من جهل وتأخر وانحلال وخراب ، الى نشاط فكري وتقدم اقتصادي وعمران شامل وازدياد مطرد في السكان والاموال (١٧) .

وقد ساعد على التطور الحضاري في جزيرة صقلية ماتمتعت به الجزيرة من موقع متوسط جعلها ، على رأي بعض الباحثين ، بوتقة جمعت كثيرا من مقومات الشرق والغرب . فموقع جزيرة صقلية في الحوض الغربي للبحر المتوسط وقربه من شاطئ افريقية من جهة الجنوب وشاطئ ايطاليا من جهة الشمال جعلها حلقة وصل بين العالم الاسلامي من جهة وبين اوربا من جهة اخرى . وساعد على التطور الحضاري أيضا ما تمتعت به جزيرة صقلية من خيرات كثيرة ورخاء اقتصادي (١٨) ، فازدهرت الحضارة الاسلامية في صقلية ازدهارا كبيرا ، وناست حضارات الشرق الاسلامي وحضارة الاندلس .



بعد أن استقر المسلمون في جزيرة صقلية بدأوا عهد التنظيم والترتيب . فبعد أن كانت الجزيرة مقسمة قسمين أو ولايتين في عهد البيزنطيين وهما : بالرمه (بالرمو) وسرقوسة (سيراكوز) ، قسمها المسلمون الى ثلاث ولايات تمشيا مع الوضع الجغرافي للجزيرة . وكان تحت أمرة حاكم كل من هذه الاقاليم الثلاثة طائفة من القواد يحكمون النواحي (١٩) ، وخضع الحكم الثلاثة لوال واحد مقره مدينة بلرم التي اتخذها العرب حاضرة لهم .

وكان الوالي في صقلية يخضع للاغالبية في تونس زمن حكم الاغالبية لها وبعد انتقال الحكم الى الفاطميين كان لزاما على الوالي ان يحصل على تقليد الخليفة الفاطمي ، الذي يستمد منه سلطاته الادارية والحربية (٢٠) .

وبالإضافة الى الوالي كان هناك « المفتي » أوقاضي القضاة الذي يقيم في مدينة بالرمو . وكان يوجد في كل مدينة من المدن قاض وكاتب ومستخلص الضرائب أو العشور . وهنالك في بالرمو « مجلس كبير يدعى الديوان » كان من خصائصه ضبط اموال الدولة وفحص الحسابات العامة (٢١) واتخذ المسلمون بصقلية بعض دواوين الحكم التي كانت سائدة في مصر وفي شمال افريقية ، ومن ذلك ديوان المظالم ، وديوان التحقيق وديوان الطراز (٢٢) .

وشهدت صقلية في ظل الحكم الاسلامي نهضة زراعية وصناعية وتجارية كبرى . ففي مجال الزراعة : تمثلت النهضة في استخدام الاساليب الزراعية الجديدة وفي استغلال كل أرض صالحة للفلاحة وفي ادخال أنواع جديدة من المزروعات لم تكن معروفة من قبل .

فقبل الفتح الاسلامي للجزيرة وفي ايام البيزنطيين لم يهتم أهل صقلية سوى بزراعة القمح واستيراد الزيتون والزيت من شمال افريقية (٢٣) . اما المسلمون فقد ادخلوا الى صقلية كثيرا من انواع المحاصيل الزراعية كالبرتقال والليمون والقصب والارز والنخيل والقطن والفسق والكتان والبردى والزعفران والقنب (٢٤) . وترتب على ذلك أن نشأ في صقلية أساليب زراعية جديدة تتلاءم مع بيئتها . فأصبحنا نستمع في كتاب الفلاحة لابن العوام الاشبيلي بما يسمى بطريقة أهل صقلية في زراعة البصل ، او عادة أهل صقلية في زراعة القطن (٢٥) هذا فضلا عن التوسع في زراعة بعض المحاصيل القديمة مثل القمح حيث أصبحت حقول القمح والشعير تبسط على اكثر اقسام الجزيرة وشاحا من الذهب الابريز .

واكثر الناس في صقلية من زراعة الخضروات والفاكهة . وادخل المسلمون الى الجزيرة بعض انواعها فكانت بلرم (بالرمو) عامرة ببساتين الخضروات والفاكهة ، ويذكر المقدسي كثرة الفواكه والخيرات والاعشاب في بلرم وضواحيها . والحق ان خير كتاب لتصوير الحالة الزراعية في صقلية في العصر الاسلامي هو كتاب الادريسي « نزهة المشتاق في اختراق الافاق » ، فما من بلد أورد ذكرها الادريسي الا واقترن اسمها بالبساتين والمياه والمزارع الطيبة ، مثل بلرم وجفلوذ ومسيني او مسينه وقطانية وغيرها . وقد ازدهرت زراعة الورود ايضا ولا سيما البنفسج ذو الرائحة الفاتحة العطرة ، والذي انتشرت زراعته حول بسنت ماركو (٢٦) .

وقد اهتم المسلمون ايضا بحضر الترع والقنوات ، واقاموا المجاري المعقوفة وكانت غير معروفة قبلهم (٢٧) . كما ازالوا تلك الاشجار غير المثمرة الضخمة التي ملأت جزيرة صقلية وزرعوا مكانها بعض المحاصيل الجديدة التي احضرها معهم من شمال

افريقية ، ونتيجة لاعتناء المسلمين بالثروة الزراعية في صقلية انتعش الانتاج الزراعي انتعاشا كبيرا واصبح بجزيرة صقلية « الخصب والسعة والزروع والمواشي مايفضل على سائر ممالك الاسلام المتاخمة للبحر » واصبحت ايضا كلها خيرات ورياضا وبساتين .

والى جانب اهتمام المسلمين بالزراعة في صقلية فقد نهضوا بالصناعة ايضا . فنشطت في صقلية بعض الصناعات القائمة على الانتاج الزراعي ، مثل صناعة قصب السكر كما امتلأت صقلية بمصانع النسيج لنسج الثياب الحريرية والكتانية والقطنية . فقد عام المسلمون أهل صقلية صناعة الحرير بعد ان ادخلوا دود القز اليها وزادت بالتالي أهمية نساجي الحرير . وقيل أن بعض عباءات من قماش رقيق كانت ترسل من صقلية الى مصر ، خاصة عباءات ابناء الخليفة الفاطمي المعز (٢٨) .

وفي نورمبرج :يوم رداء حرير كان للملك صقلية وعليه كتابة بحروف كوفية يحمل تاريخ سنة ٥٢٠ هـ (١١٣٣) م . وهذا ما يدعو الى الاعتقاد بأن صناعة الثياب انتقلت من صقلية الى اوربا (٢٩) .

واشتهرت صقلية بنسج الثياب الكتانية الممتازة التي نافست مثيلاتها في مصر والشام ويشير ابن حوقل في كتابه صورة الارض الى ان الثياب الكتانية المصنوعة بصقلية لا نظير لها جودة ورخصا وبيع مستعملها مما يقطع قطعين من الخمسين رباعيا الى ستين رباعيا فيزيد على ما يشتري من امثاله بمصر بالخمسين والستين دينارا كثيرا (٣٠) ويؤكد الرحالة ناصري خسرو هذه الحقيقة بقوله : ويجلبون منها - اي من صقلية - كتانا رقيقا وثيابا يساوي الثوب منها في مصر عشرة دنانير مغربية (٣١) .

والى جوار صناعة المنسوجات ، نقل المسلمون الى صقلية صناعة القراطيس او الطوامير من نبات البردي الذي قاموا بزراعته في صقلية . وذكر ابن حوقل ان بصقلية بقاعا قد غلب عليها زراعة البردي ويصنع منه الطوامير ، واكثره يقتل حبالا للمراكب واقله يعمل للسلطان منه طوامير لا يزيد على قدر كفايته (٣٢) .

وازدهرت صناعة دبغ الجلود في صقلية ازدهارا كبيرا ويرجع ذلك الى شهرة صقلية بالمواشي كما في اشعار بندار ، وكذلك انواع المعزى . وبعض الماعز الموجودة في صقلية اليوم من ذوات الاذن المتدلية مما يرجح أن العرب هم الذين جاءوا بها . وكان للخيول الصقلية شهرة واسعة في العصر البيزنطي اذ كانت تربي بكثرة في

اقتطاعات البابا ويستمد منها البابوات خيولهم . ولما دخل المسلمون صقلية دخلتها الخيول العربية ، وطمست شهرة الخيول المحلية . وكذلك جاء المسلمون بالجمال الى صقلية ولكنه انقرض منها (٣٣) .

واهتم المسلمون ايضا بصناعة السفن ، التي قامت على وفرة الخشب والحديد في الجزيرة . ويرجع اهتمام المسلمين بتلك الصناعة الى كثرة الاحتياج اليها ، باعتبارها السلاح الاول لهم سواء في حياتهم الاقتصادية او الحربية . ووجد بجزيرة صقلية اكثر من دار لصناعة السفن (٣٤) . كذلك استخرج المسلمون بعض الثروات المعدنية في صقلية ، منها معدن الفضة ، والنحاس ، والنوشادر ، والكبريت ، ومعدن الصب ، والنفط ، والحديد ، والرصاص ، والذهب . ومن الجدير بالذكر أن الذهب كان يوجد بجبل كبير بصقلية اطلق عليه جبل الذهب ، وقد استخدم المسلمون تلك المعادن في صناعات راقية .

ونتيجة لوفرة الانتاج الزراعي والصناعي واستخراج المعادن ، نشطت حركة التجارة في صقلية نشاطا كبيرا ابان الحكم الاسلامي ، بعد أن بلغت درجة كبيرة من التدهور زمن الحكم البيزنطي واستفاد المسلمون من موقع صقلية الجغرافي ، الذي جعلها تلعب دورا خطيرا في النشاط التجاري في البحر المتوسط . وأصبحت معظم مدنها الساحلية مراكز تجارية هامة ، خاصة تلك المدن التي اشتهرت بسهولة اقلاع السفن منها ورسوها فيها (٣٥) . ومن امثال تلك المدن مدينة مسيني التي قال عنها الادريسي : « السفر منها واليها قصدا ، وهي دار الانشا ، وبها الحط والاقلاع وبها الارشاء مع جميع بلاد الروم الساحلية ، وبها تجتمع السفن الكبار ، والمسافرون والتجار من بلاد الروم والاسلام والقاصدون اليها من جميع الاقطار ، واسواقها راقية وسمعتها نافقة وقاصدها كثير » (٣٦) .

ونتيجة للعوامل السابقة تبوات صقلية في العصر الاسلامي قمة النشاط البحري التجاري ، وجابت الاساطيل الاسلامية الصقلية عرض البحر المتوسط حاملة تجارة جميع البلاد المظلة على شواطئه سواء في الشرق أم في الغرب . وقد اشار المقدسي الى انه شاهد كثيرا من التجار الصقليين في موانئ مصر والشام والقسطنطينية وكذلك في موانئ الغرب الاوروبي (٣٧) .

وتنوعت السلع التجارية المجلوبة على سفن صقلية . فمن الشرق حملت التوابل والمنتجات الشرقية الفاخرة ، ثم تعود محملة من صقلية بمختلف منتجاتها سواء اكانت حريرية او كثرانية من الاقمشة المحلاة بالجواهر والطنافس المصورة أم محملة بالمنتجات

الزراعية والحيوانية ، مثل الجوز والفسق والبندق والجلد المدبوغ . ونقلت سفن صقلية المنتجات الفنية والتحف الخشبية والعاجية والمعدنية والالوانى الخزفية والزجاجية من مصر والشام الى اوروبا(٣٨) .

وفي نفس الوقت نشطت الحركة التجارية في داخل الجزيرة نفسها ، وليس ادل على ذلك من امتلاء الاسواق الداخلية بالبضائع والسلع وبالتجار . ويلاحظ انه كان لكل طائفة سوق خاص بها وقد اشار ابن حوقل الى ذلك بقوله : سوق للزبائين بأجمعهم والدقاقين والصيارفة والحدادين والصياقلة ، واسواق القمح والطرارين والسماكين وطائفة القصابين وباعة البقل وأصحاب الفاكهة والريحانيين والجزارين وطائفة من العطارين والدباغين والنجارين(٣٩) .



أما عن مظاهر الحياة الثقافية في صقلية في العصر الاسلامي فقد شهدت جزيرة صقلية ابان حكم المسلمين لها ، في عهدي الاغالبه والفاطميين ، نشاطا ثقافيا واسع النطاق . ومن مظاهره انتشار الدين الاسلامي والثقافة الاسلامية واللغة العربية(٤٠) . وقد لاحظ ابن حوقل في كتابه صورة الارض صورتين متلازمتين هما : كثرة المساجد وكثرة المعلمين . وبالنسبة للظاهرة الاولى وهي كثرة عدد المساجد الموجودة في صقلية يقول : وبصقلية من المساجد في مدينة بلرم والمدينة المعروفة بالخالصة والحارات المحيطة من وراء سوريها عامرة اكثرها قائمة على عروشها بحيطانها وابوابها نيف وثلاثمائة مسجد(٤١) . ويعلل ابن حوقل كثرة المساجد بقوله : « كان يحب كل واحد منهم ان يكون له مسجد مقصور عليه ، ولا يحب ان يشاركه فيه اهله وخاشيته ، وربما كان اخوان منهم متلاصقة دارهما متصاقة الحيطان فعمل كل واحد منها مسجدا لنفسه ، ويكون جلوسه فيه وحده »(٤٢) وربما كان هذا التعليل صحيحا ، لانه يصور تلك الروح الفردية التي كانت تغلب على الحياة الاسلامية هناك . كما ان الاكثار من بناء المساجد خير مايقنع بانتصار الجماعة الاسلامية على كل موروث صقلي ، وخير مايطمئن الازهان الى تثبيت الصلابة الاسلامية في تلك البلاد(٤٣) .

أما بالنسبة للظاهرة الثانية وهي كثرة المعلمين ، فيقول ابن حوقل « الغالب على البلد المعلمون والمكاتب في كل مكان ، وكان في بلرم (بالرمو) نفسها مالا يقل عن ثلاثمائة معلم »(٤٤) . وكان المعلم في هذا العصر شخصية طاغية الاثر في حياة الناس . اما عن نظرة اهل صقلية للعلماء او للمعلمين فكانوا يرون فيهم « اعيانهم ولبابهم وفقهاءهم ومحصولهم وارباب فتاويهم وعدولهم ويهم عندهم بقول الحلال والحرام ، وتعتقد الاسكاف وتنفذ الشهادات ، وهم الادباء والخطباء »(٤٥) . وتدل تلك الكثرة من المساجد

والمكاتب أو الكتاتيب والمعلمين على نشاط تعليمي واسع وعلى ان مسلمي صقلية اهتموا بتنشئة ابناءهم وتثقيف عقولهم . ومما يدل على أن مدارس المساجد والكتاتيب كانت تعج بالتلاميذ المسلمين في صقلية لتلقى مبادئ القراءة والكتابة التي كانت ضرورة لازمة لمن يتصدى لحفظ القرآن الكريم الذي يعتبر أساس الثقافة في البلاد الاسلامية مذكره الرحالة ابن جبير الذي زار الجزيرة في عام ٥٨٠ هـ \ ١١٨٤ م :
اما المساجد فكثيرة لاتحصى واكثرها محاضر لمعلمي القرآن .

وكانت طريقة التدريس في صقلية على نظام الحلقات بالمساجد ، وهو نظام كان سائدا في مختلف الجوامع في البلاد الاسلامية وتعرف كل حلقة باسم شيخها وتأخذ حظها في الشهرة والشيوع بقدر ما يتمتع به استاذها أو شيخها من حيث علو كعبه في مادته .

وكان يقوم بالتدريس في مدارس الجوامع نخبة من العلماء المتبحرين الصقليين الذين عرفتهم كتب الطبقات والمعاجم ائمة في العلوم الشرعية واللغوية كالقراءات والفقه والحديث والتفسير واللغة والادب والنحو والعروض وتفسير الرؤيا ، وكذلك علوم الاوائل كالطب والجغرافيا والطبيعة والكيمياء والفلسفة والتنجيم ، وغيرها من مختلف العلوم والفنون .

وقد شجعت سياسة المسلمين الفاتحين لجزيرة صقاية العلماء والفقهاء على الإقامة بالجزيرة ، كما أن سهولة الاتصال بصقلية ادت الى كثرة عدد من زار صقلية من العلماء والادباء والرحالة من مختلف بلدان العالم المعروف وقتذاك ، في حين كان لاستمرار حكم المسلمين للجزيرة طوال ثلاثة قرون اثر كبير في تعميق الثقافة العربية الاسلامية بها(٤٦) . يضاف الى ذلك أن تبعية جزيرة صقلية لحكم الاغلبية بالقيروان ومن بعدهم للفاطميين بالقيروان ثم مصر كان له اثره في انتقال كثير من المعارف والعلوم من شمال افريقية ومصر الى صقلية وبالعكس صحبة العلماء المتنقلين بين تلك البلاد من جهة ، وصحبة التجار من جهة اخرى ، وكانت النتيجة ان ازدهرت بصقلية مختلف الدراسات الدينية من فقه وحديث وتفسير وقراءات وغيرها ، وعلوم الطب والجغرافيا والكيمياء ، وكذلك انجبت صقلية عددا كبيرا من العلماء والفقهاء والادباء العارفين بشتى نواحي المعرفة .

ولنتناول بالحديث بعض هذه الدراسات الدينية التي ازدهرت في جزيرة صقلية ، مع ذكر أشهر العلماء والفقهاء والمحدثين الذين انجبتهم الجزيرة إبان الحكم الاسلامي لها ، وذلك لايضاح مدى مساهمتها به صقلية في مضمار الثقافة العربية الاسلامية .

نفي مجال الفقه لم يكن بصقلية مدرسة فقهية من ابنائها الا في اواخر القرن الرابع الهجري ، حين نجد أمثال أبي بكر الصقلي الفرضي ، الذي كان عليه اعتماد الطلبة الصقليين في دراسة الفرائض ، وأبي بكر بن أبي العباس الفقيه الذي كان يشتغل بالتدريس ، وكل هؤلاء استمدوا ثقافتهم من اساتذة في صقلية او غيرها ، ثم كان لهم الفضل في تعليم اكبر فقهاء صقلية ومحدثيها في القرن الخامس الهجري خاصة ابن يونس ، وعبد الحق الصقلي والسمنطاري (٤٧) .

وذاعت شهرة ابن يونس ، وعبد الحق والسمنطاري خارج حدود صقلية ، فتناول ابن يونس الفرضي المدونة الكبرى لسحنون التنوخي ، واضاف اليها ، وجعل ذلك كتابا كان عليه اعتماد النحهاء حتى انتقل الكتاب الى المغرب والاندلس .

وكان عبد الحق ايضا اكبر فقيه صقلي احرز شهرة في وطنه وفي خارجه . فقد قام عبد الحق بالتدريس في صقلية والقيروان ومكة والاسكندرية ، ودرس عليه في القيروان ابن الخياط ، ومحمد بن نعمة الاسدي ، ولقيه بمكة ابن قطري الزبيدي وعبد الرحمن بن المعافري . وكان من تلامذته ، في صقلية نفسها ، طلبة اندلسيون كما كان فيمن لقيه أثناء رحلاته جماعة من الاندلسيين ايضا . وهذا يظهر الى أي مدى ذاعت شهرة عبد الحق خارج صقلية (٤٨) . وليس لدينا من مؤلفات عبد الحق ما يوضح لنا اثره الصحيح في الفقه ، ولعله كان متشددا في احكامه وفتاويه مثل قوله بعدم جواز اله لالة خلف من يظهر في قراءته النون الخفيفة أو التنوين عند الياء والواو ، وعد هذا من اللحن قياسا على من يتكلم في الصلاة متعمدا (٤٩) .

أما ثالث المشهورين وهو عتيق السمنطاري ، فقد انصرف الى تدريس الحديث النبوي الشريف وتلقى ثقافته على ابن يونس الفرضي بصقلية ، وسكن بلرم ، أي انه هجر قريته سمنطار ولزم حلقات الدرس في المدينة بلرم . وكانت له رحلة زار فيها الحجاز وساح في البلدان من ارض اليمن والشام الى ارض فارس وخراسان ، ولقى بها الكثير من اصحاب الحديث والزهاد ، فكتب عنهم جميع ما سمع وصنف كل ما جمع . وقد ألف في الفقه تأليف وصفه بأنها في غاية الترتيب والبيان . وفي عام ٤٦٤ هـ . توفي السمنطاري ، وهاجر بعض تلامذته من صقلية الى مصر ، واهمهم عبد الكريم بن عبد الله بن محمد المقرئ الواعظ (٥٠) .

وتقدمت علوم الحديث والتفسير والقراءات تقدما ملحوظا في صقلية . فالحديث كانت دراسته تدور حول كتاب الموطأ للإمام مالك أو ملخصات منه . ومن أشهر علماء الحديث في صقلية عبد الحق الصقلي والسمنطاري . وبرع في التفسير والقراءات

علماء اجلاء اهمهم محمد بن عبد الله المقرئ الذي اقام في صقلية وكان من اهل القرآن والتفسير . وكان اسد بن الفرات من العلماء البارزين في دولة زيادة الله بن الاغلب . وابن الفرات فقيه مالكي ومحدث ، اصطحب معه الى صقلية رهطا كبيرا من العلماء والفقهاء شاركوا في حركة الانتعاش الثقافي في الجزيرة (٥١) .



أما عن علوم الاوائل فقد شهدت صقلية الى جانب الدراسات الدينية انتشارا لعلوم الاوائل وتحدثنا المصادر عن سعيد بن فرحون المعروف بالعمار السرقسطي الذي دخل صقلية بعد محنة اصابته في ايام المنصور بن ابي عامر ، وظل فيها الى أن توفي . وبرع ابن فرحون في اللغة والنحو والموسيقى والمنطق . فهو صاحب رسالة في المدخل الى علوم الاوائل سماها « شجرة الحكمة » ولدينا شواهد نستطيع أن نحكم منها بأن المغاربة عامة والصقليين خاصة ، عرفوا في وقت متأخر كتب ابي حيان التوحيدي ، سواء اكان ذلك بالهجرة الى الشرق أم بارتحال تلك الكتب الى الغرب . فقد كتب أحد اهل صقلية على ظهر كتاب الامتاع « ابتداء أبو حيان كتابه صوفيا ، وتوسطه محدثا وختمه سائلا ملحقا » (٥٢) .

ولا تمدنا المصادر التاريخية المتداولة بمعلومات وافية عن علوم الطب والفلك والتنجيم في صقلية وقد عثيت بعض المصادر بنسبة الطب الى ابي عبد الله بن الطوبي ، ووصف احيانا بأنه اربى في الطب على نظرائه . وذكره العماد في خريدته فقال : انه كان طبيا مترسلا وشاعرا ، ومدحه ابن القطاع وأشار الى مهارته الطبية بقوله :

ايها الاستاذ في الطب	واعراب الكلام
لك في النحو قياس	لايساميه ممام
ثم في الطب علاج	دافع الداء العقام

وكان هناك من الاطباء في صقلية من يستعملون بعض العقاقير الطبية او غير الطبية في العلاج منها الشب والحلتيت والصبر . . . الخ (٥٣) .

وبالنسبة لعلم الهندسة ، تخبرنا بعض المصادر ان الكاتب أبا الفضل احمد بن دابق كان عالما بالهندسة ، وان عمر بن محمد بن الحسن الصوفي كان كاتباً ومنجماً ومهندساً .

اما عن انتشار اللغة العربية في جزيرة صقلية فمن المعروف ان اللغة العربية دخلت الجزيرة مع افواه الفاتحين ، وظلت فترة من الزمن لغة المنتصرين وحدهم ، حتى تطورت الحياة الاجتماعية بالجزيرة ، واعتنق اهلها الاسلام ، واصبحت اللغة العربية لغة رسمية وشعبية في وقت واحد . ومن الجدير بالذكر ان العرب تركوا الفاظا كثيرة من لغتهم في اللغة الصقلية ، ولا تزال عدة اماكن بصقلية تحمل اسماء عربية ولا سيما اسماء القلاع والراسي والشوارع ، وتبدأ اسماء القلاع بلفظ (قلنا) اي قلعة ومنها ما اصبح اليوم مدنا مثل قلعة النساء وقلعة نيمي وقلعة الحسن ، وكذلك المراسي مثل كلمة مرسى على ، مرسى المينا وغيرها (٥٤) .

واذا تركنا اثار المسلمين في صقلية من الناحية الثقافية ، الى اثارهم في الناحية المعمارية فيجب ان نذكر تلك العبارة التي ذكرها القزويني في كتابه آثار البلاد واخبار العباد « كانت صقلية قليلة العمارة خاملة الذكر الى ان فتحها المسلمون في ايام بني الاغلب » والحق ان القزويني صادق في عبارته هذه الى حد كبير ، فقد ادت هجمات القوط الى خراب صقلية بما كانت تحمله من همجية وعدم تقدير للحضارة . وحاول الاباطرة البيزنطيون امثال قنسطانز الثاني الاهتمام بتلك المدينة وتعميرها ، ولكنه فشل في ذلك واستمرت عمارة صقلية مهملة تماما حتى الفتح العربي لها فاقام بها العرب المباني الفاخرة والقصور العامرة (٥٥) . ومما يؤكد ذلك وصف الادريسي لمدينة بالرم بقوله : « لها حسن المباني التي سارت الركبان بنشر محاسنها في بناءاتها ودقائق صناعاتها وبدائع مخترعاتها ، وهي قسمان قصر وريض ، فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره في كل بلد واقليم ، وهو في ذاته على ثلاثة اسمطة ، فالسماط الاول يشتمل على قصور منيعة ومنازل شامخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار ، والسماطان الباقيان فيها ايضا قصور سامقة ، ومبان فاخرة عالية ، وبهما من الفنادق والحمامات الكثير الكثير ، وبه الجامع الاعظم » (٥٦) . ولنتناول في شيء من التفصيل بعض قصور مدينة بالرم التي بلغت اوج عزتها وسدرة منتهى رونقها وبهاؤها ابان العصر الاسلامي . من تلك القصور: قصر النواره وقصر العزيز وقصر القبة والقصر الملوكي . اما عن قصر النواره فهو من اهم اثار بالرم الاسلامية ولقد ترنم بذكر محاسنه الشاعر عبد الرحمن بن ابي العباس حينما يقول :

نواره البحرين جامعة المنى عيش يطيب ومنظر يستعظم

ويقع هذا القصر الشامخ فوق جزيرة تحيط بها بركة صناعية من جهات ثلاث ، وقد شاده وبالغ في تزويقه الامير جعفر ، من ملوك بني الحسن بين عامي ٩٩٧ و ١٠١٩ م واتخذته هو وخلفاؤه من بعده مكانا للترف والنعيم (٥٧) .

اما « قصر العزيز » فيدعوه الاوربيون لازيزا Laziza وقد شيده ليتخذ منه مقرا للملكه وسلطانه الملك ولیم الاول فيما بين سنتي ١١٥٤ - ١١٦٦ م بواسطة مهندسين وبنائين وتقاشين من المسلمين فكان القصر آية من آيات الفن المعماري الاسلامي . « وقصر القبة » وهو على شاكلة قصر العزيز اثم صنعه البناؤون المسلمون حوالي سنة ١١٨٠ م ، وقد تحطم اكثره ولم تبق الا بعض جدرانه وقاعاته قائمة ، تذكر الايام بما سلف لها من مجد . اما عن « القصر الملوكي » فقد انشاه المسلمون واتخذوه مقرا للحكم والامارة . ثم استقر به ملوك النورمان بعد ذلك ، فزادوا في مساحته و اضافوا اليه بواسطة البنائين المسلمين اقساما اخرى ، ولا يزال قائما حتى الآن (٥٨) .



على ان الحضارة الاسلامية في جزيرة صقلية لم تنته بانتهاء حكم المسلمين للجزيرة ، وانما وجدت في ملوك النورمان خير مشجع لها . فعندما دخل النورمان صقلية (١٠٦٠ - ١٠٩١ م) تركوا مسينا ، عاصمة الجزيرة قبل الفتح الاسلامي ، واتخذوا مدينة بالرم عاصمة للدولة النورمانية . وعاش النورمان في ظل الحضارة الاسلامية ، ونصبا انفسهم رعاة وحماة لهذه الحضارة ، الامر الذي ادى الى استمرار الحضارة الاسلامية في عهدهم .

وتحت حكم النورمان عاش المسلمون عيشة المعلم ، واصبح النورمان المنتصرون تلاميذ للعرب المغلوبين واقبلوا على تحصيل الثقافة والعلوم الاسلامية . ومع ذلك فقد آلمت سيادة النورمان على عرب الجزيرة كثيرا من الشعراء امثال الشاعر عبد الجبار بن ابي بكر محمد بن حمديس الصقلي السرقوسي ، فقد هاله قدوم النورمان الى صقلية الاسلامية فرحل عنها الى اشبيلية ورثاها في شعر قال فيه :

ديار تمشت اليها الخطوب كما تمشى الذئاب الضراء

ولكن جراح ودموع أولئك الذين بقوا في الجزيرة قد اندملت وجفت ، وخاصة بعد ان اذهلت الحضارة الاسلامية المنتصرين وشعروا بتفوق المسلمين الحضاري عليهم . فقد وجد النورمان انفسهم في بيئة حضارية جديدة ما كانت تجول بخاطرهم فكانوا اينما اداروا وجوههم لا يشاهدون الا الجمال والابهة وحياة اخرى ارفع وارقي من تلك التي كانوا يحيونها من قبل ، هذا الى جانب فن العمارة الاسلامي الذي ابدع فيه الفنانون والمزخرفون المسلمون ، والى جانب لغة وشعر بلغا منزلة ادبية وفنية عالية ، لذلك لا عجب اذا وجدنا النورمان يؤخذون بهذه البيئة الجديدة ويقعون اسراها عن طيب خاطر .

وكان النورمان اسبق من غيرهم الى اقتباس العادات والتقاليد والثقافة الاسلامية رغما من الاتفاقية المبرمة بينهم وبين البابا ، وتقول الكاتبة الالمانية الدكتورة ريجفريد هوتكه في ذلك « وقد اسرع هؤلاء الحكام وغيرهم من سكان صقلية المسيحيين في التحلل من التقاليد المسيحية حتى الطقوس الكنسية وشعروا بالسعادة عندما ساروا في طريق الامراء العرب » (٥٩) .

وقد اقام النورمان في هذه القلاع والقصور على الطراز العربي الاسلامي تحيط بها الحدائق الغناء ، حيث تتدفق فيها الينابيع الصناعية ، كما زخرفوا هذه القصور بالرخارف العربية والمياه المتفجرة من أعلى الكهوف والاقواس المدببة ، ولم يترددوا في تسميتها بأسماء عربية وان يدشنوها باسم الله الرحمن الرحيم حيث تجد على هذه القصور العبارات التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم قف ساكنا وتأمل عملا عظيما شامخا .

ويعتبر الملك النورماني روجر الثاني من اشهر ملوك النورمان حبا للثقافة الاسلامية ومشجعا لها ولذلك نجد الملك روجر يتصل بالمسلمين في صقلية ، ويتبادل معهم الراي والمشورة في اموره ومهام دولته ، بل لقد ذهب الملك روجر الى ان طلب من المسلمين ان يعلموه ما يجهل فتراه يحتفظ بعدد كبير من شعرائهم وعلمائهم في قصره . وكلف عددا منهم بترجمة المصادر العربية واليونانية الى لفته وشارك الملك روجر الثاني في المجادلات التي كانت كثيرا ما تقع بين المسيحيين والمسلمين ، وتعصب الملك للاسلام والمسلمين . والذي حمل الملك النورماني على هذا الموقف اعتقاده كما يروي ابن الاثير في ان المسلمين جديرون بالاحترام والتقدير ، ولذلك صادقهم وحماهم من الافرنج فأحبوه . وقد اشاد به العرب في اشعارهم وخلدوه في مؤلفاتهم وذكروه على انه الحاكم المثالي الذي عرفته العصور الوسطى ، وهو مؤسس الدولة والمشرع والسياسي ، وهو المهتم بالرياضيات والفلك والجغرافيا وعلم الطبيعة . والى المسلمين يرجع الفضل في الحالة الاقتصادية التي كان يعيش فيها الملك روجر والتي مكنته من أن يصبح من أغنى ملوك أوروبا ، فالعرب كانوا مهرة في زراعة الارض ونشطوا في المجال الصناعي والبحري وكان لهم نظام مثالي في الاقتصاد والضرائب .

واستدعى روجر الثاني الى بلاطه العالم الجغرافي العربي الكبير ابا عبد الله محمد بن محمد الادريسي (٤٩٣ - ٥٦٠ هـ) والادريسي درس في مستهل حياته في قرطبة بالاندلس وقام برحلات طويلة بين آسيا والشواطئ الغربية لانجلترا ،

ثم تحول جنوبا الى افريقيا ورسبت به الحياة في صقلية وقضى خمسة عشر عاما في بالرم . وقد شارك الملك روجر المتعطش الى العلوم والمعرفة والجغرافية الادريسي في ولعه بالعلوم والمعارف ، وكلف الملك الادريسي برسم خريطة للعالم واخراج كتاب في الجغرافية يفرغ فيه الادريسي ما لديه من معلومات جغرافية نفيسة ، فقام الادريسي بوضع كتابه الجغرافي المشهور الذي يعد من اعظم الاعمال في ميدان الجغرافية ، حتى يذكر العلماء بأن احسن خريطة جغرافية وصلتنا هي تلك التي تركها لنا الادريسي ، وهي محفورة على كرة من الفضة قطرها متران وتزن ثقل رجلين مكتملين ، اما شرحها فعبارة عن هذا الكتاب القيم والمسمى لدى الغربيين باسم « كتاب روجر » نسبة الى الملك روجر والمعروف لدى العرب باسم كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الافاق » .

ويذكر لنا الادريسي سبب تأليفه هذا الكتاب بأمر الملك روجر الثاني فيقول : « فمن بعض معارفه السنينة ونزعاته الشريفة انه لما اتسعت اعمال مملكته وتزايدت همم اهل دولته واطاعته البلاد الرومية ودخل اهلها تحت طاعته وسلطانه احب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ويقتلها يقينا وخبرة ، ويعلم حدودها ومسالكها برا وبحرا ، ففي اي اقليم هي وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها ، ومعرفة غيرها من البلاد والاقطار في الاقاليم السبعة التي اتفق عليها المتكلمون ، واثبتها في الدفاتر الناقلون والمؤلفون ، وما لكل اقليم منها من قسم بلاد يحتوي عليه ويرجع اليه ... فأحضر اليه العارفين بهذا الشأن ، فباحثهم عليه واخذ معهم فيه فلم يجد عندهم علما اكثر مما في الكتب المذكورة ، فلما رأهم على مثل هذه الحال بعث الى سائر بلاده فأحضر العارفين بها المتجولين فيها ، فسألهم عنها بواسطة جمعا وافرادا فما اتفق فيه قولهم اثبته وابقاه وما اختلفوا فيه الغاه وأرجاه ... وان يؤلفوا كتابا يصف احوال البلاد والاراضين في خلقها وبقاعها وامانها وصورها وبحارها وجبالها وانهارها ... ومزروعاتها وغللاتها واجناس ابنائها وخواصها والاستعمالات التي تستعمل بها والصناعات التي تنبثق بها ، والتجارات التي تجلب اليها وتحمل منها والعجائب التي تذكر عنها وتنسب اليها ... وذكر احوال اهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزيهم وملابسهم ولغاتهم » .

وقد اتم الادريسي هذا العمل العظيم في بلاط الملك روجر الثاني ، ووضع خريطة للعالم على شكل طبق من الفضة ، وهو اول من نادى بكروية الارض في هذه البلاد ، فالذي كان معروفا في كثير من الاديرة ان خريطة العالم عبارة عن قطعة من الارض تحيط بها المياه وفي وسطها تقع الجنة . وخريطة الادريسي تختم هذه القرون

المظلمة ، وهي اول مجهود علمي شخصي . ووصف الادريسي جزيرة صقلية في كتابه فقال : ان جزيرة صقلية فريدة الزمان فضلا ومحاسن ، ووحيدة البلدان طيبا ومساكن ، وقديما دخلها المتجولون من سائر الاقطار والمترددون بين المدن والامصار وكلهم اجمعوا على تفضيلها وشرف مقدارها واعجبوا بزاهر حسنها ، ونطقوا بفضائل ما بها ، وما جمعته من مفترق المحاسن وضمته من خيرات سائر الموطن « . وقد اعجب روجر بالادريسي اشد الإعجاب بعد ان انجز له العمل الذي طلب منه واراد ان يبقيه في بلاده قائلا له : « انت في بيت الخلافة ومتى كنت بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك ومتى كنت عندي امنت على نفسك » فاجابه الى ذلك (٦٠) .

ولقد زار ابن جببر الرحالة العربي الفرناطي مدينة بالرم ، وسحرتة بمناظرها وحضارتها سنة ١١٨٥ م ولقد ترك لنا في رحلته وصفا دقيقا عن صقلية وبالرم العاصمة وقصرها الملكي والشيء الجدير بالانتباه والذي لفت نظر الرحالة العربي الفرناطي هي تلك الصلة القوية بين الحاكم النورماني ورعاياه المسلمين . فقد كان الرحالة يعتقد انه يزور بلدا يحكمه الافرنج ، الا انه سرعان ما تبين مقدار الثقة العظيمة التي يوليها الملك للمسلمين والمعاملة الحسنة التي يتمتع بها عماله المسلمون فبو كثير الثقة بهم سكن اليهم في احواله والهام من اشغاله . يقول ابن جببر :

« وكان يشرف على طعامه رجل من المسلمين وله جملة من العبيد السود المسلمين وللمسلمين في هذه المدينة رسم باق من الايمان يعمرن اكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بأذان مسوع ، ولهم ارباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى ، والاسواق معمورة بهم وهم التجار ، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ، ويصلون الاعياد بخطبة دعاؤهم فيها للخليفة العباسي ولهم فيها قاض يرجعون اليه في احكامهم ، وجامع يجتمعون للصلاة فيه واما المساجد فكثيرة لا تحصى يقوم فيها معلمو القرآن بالتدريس لاولاد المسلمين » .

ويقول ابن جببر عن ملك النورمان « وليام الثاني » انه يقرأ ويكتب اللغة العربية وعلامته كما يذكر أحد خدمه المختصين به « الحمد لله حق حمده » وكانت علامة ابيه « الحمد لله شكرا لانعمه » ويذكر ان الجوارى في القصر مسلمات ، ومن اعجب ما حدث به بعض خدمه وهو يحيى من فتيان الطراز الذي يطرز بالذهب في طراز الملك ، ان الافرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتصبح مسلمة بواسطة الجوارى الموجودات بالقصر ، وهن على تكتن من ملكن في ذلك كله ولهن في فعل الخير امور عجيبة ومما يذكر ايضا انه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة دعر لها هذا المشرک فكان يتطلع في قصره فلا يسمع الا ذاكرة لله ولرسوله صلوات الله وسلامه

عليه من نسائه وفتيانه وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم : « ليذكر كل احد منكم معبوده » تسكيناً لهم ، واما فتيانه الذين هم عيون دولته واهل عمالته فهم مسلمون يصومون الاشهر تطوعاً ، ويتصدقون تقرباً الى الله ، ويفكون الاسرى ، ويربون الاصاغر ويفعلون الخير ما استطاعوا (٦١) .

ويعتبر الملك المستعرب فردريك الثاني من اشهر الملوك الذين تأثروا بالحضارة الاسلامية ، وفردريك الثاني هو حفيد روجر الثاني نشأ في بالرم يتيماً مهملاً ثم جلس على عرش صقلية بعد ابن عمه النورماني الملك وليام الثاني . وكان في صغره يتجول حراً بدون رقيب في مختلف الحواري والازقة واحياء الميناء اشباعاً لرغبته في المعرفة ، وكان يذهب الى المساجد والاسواق وارصفة الميناء ، كما اختلط بسكان بالرم من المسلمين لذلك شب هذا الملك الطفل وترعرع بين الاثار العربية الاسلامية الجميلة ، واحجار الفسيفساء البراقة والقلاع العربية الشامخة المتناهية في العظمة وهي وان كانت تحمل اسم الملك روجر ، الا ان العمال والمهندسين المعماريين الذين شيدها كانوا عرباً جنساً وفناً ومعماراً .

ونشأ فردريك الثاني في هذا الوسط العربي الاسلامي لا تقع عينه الا على صور عربية وخلق عربي وحياء عربية ، انها بيئة العروبة ولوحثها الخالدة التي لن ينساها من يشاهدها . وسمع الملك الطفل اغاني العرب في القصور وسمع اذان المؤذنين من اعلى المآذن الذي كان يحدد له نظام يومه . ولما توفيت امه النورمانية ابنة الملك روجر الثاني ساءت حاله ، وكان يأوي الى مواطنيه العرب المسلمين فمدوا له يد المساعدة فكانوا يعولونه ويطعمونه حتى بلغ الطفل السابعة (٦٢) .

وهكذا نجد ان الطبيعة العربية في صقلية هي التي تولت تربية هذا الملك ، الذي اصبح له شأن عظيم ففي ميادين بالرم والمساجد والحوانيت وفي السوق والشوارع كان يتلقى دروسه اليومية في اللغات والتي كانت متداولة في صقلية وكان يتكلم وهو طفل تسع لغات منها اللغة العربية ، ومن الجدير بالذكر ان قاضي المسلمين في بالرم كان يتولى تعليم هذا الشاب المتعطش الى العلم والمعرفة وكان يمهده بالكتب العربية ارضاء لرغبته الجامعة الى العلم وتحصيل المعرفة .

والى جانب الثقافة العربية التي تشبع بها فردريك الثاني في صقلية والتي لعبت دوراً هاماً في حياته نجده متأثر بالطراز المعماري العربي الذي شاهده في الحصون العربية في بلاد الشام اثناء حملته على بيت المقدس والادلة على ذلك المباني التي شيدها في صقلية ، ذلك انه بعد عودته من بلاد الشام كان قد أمر بتحصين مراكز

الدفاع التي تضدعت وتهدمت في صقلية ، هذه المراكز الدفاعية التي ترجع الى العصرين العربي والنورماني ، كما استخدم التصميم العربي في مبانيه الجديدة التي امر بتشيدها ، ووضع خطة جديدة للبناء تطلب انجازها عشرات السنين ، كما اقام في طول البلاد وعرضها شبكة من الحصون اللازمة في الدفاع عن البلاد وادارتها وجميعها قد اخذت عن الحصون العربية في بلاد الشام ، فالتصميم والفن والاقواس المدببة وفتحات السهام كلها عربية ، هذا الى جانب الحيطان المربعة الضخمة وبعض الزخارف التي نشاهدها في مباني فريديريك والتي تبين بوضوح تصميمها العربي ، وكذلك الاسماء المنحوتة عليها تؤيد هذه التأثيرات العربية . ومن صقلية انتشر هذا الطراز العربي للحصون والقلاع ، الذي اقتبسه فريديريك الثاني من بلاد الشام الى كافة البلدان الاوروبية (٦٣) .

وبعد ... فليس هناك ابلغ في الدلالة على شغف الامبراطور فريديريك الثاني بالحضارة الاسلامية وعلى معرفة كل جديد في العلوم العربية من اعتنازه بالهدية التي قدمها له حليفه الملك الكامل الايوبي (٦٠٤ - ٦٣٥) هـ بعد الاتفاق الذي تم بينهما بخصوص مدينة القدس . هذه الهدية هي عبارة عن كرة من النحاس صورت عليها السماء بأبراجها ونجومها وكان قد قام بعملها للملك الكامل الايوبي عالم عربي هو الشيخ علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف ، ان هذه الهدية تمثل قمة ما وصلت اليه الدراسات الفلكية على يد العلماء المسلمين في النصف الاول من القرن السابع الهجري ، بل تعتبر من اثنى النماذج المادية على تفوق الحضارة العربية . وهي لا تزال حتى يومنا هذا محفوظة في متحف بوجيا بمدينة فليترى بإيطاليا (٦٤) .



ولعبت صقلية دورا هاما في انتقال الحضارة الاسلامية الى اوروبا . فمن المعروف ان الاستفادة من خلاصة الفكر الاسلامي لم تتم الا عن طريق حركة ترجمة واسعة على يد فريق من المستعربين ، نقلوا فيها كثيرا من المؤلفات العربية الى اللاتينية ، وبذلك امكن لاوروبا الاستفادة على نطاق واسع من انتاج العلماء المسلمين ، وكان اهم مراكز الترجمة عن العربية الى اللاتينية مركزان وهما : الاندلس وصقلية . وكانت الاندلس هي المركز الرئيسي للترجمة من العربية الى اللاتينية فاتجه اليها كثير من اعلام النهضة الاوروبية في القرن الثاني عشر الميلادي يطلبون الارتواء من فيض العلوم الاسلامية في مختلف العلوم والاداب . اما صقلية فقد اسهمت بنصيب كبير في حركة الترجمة عن العربية ، وساعد صقلية على القيام بهذا الدور موقعها المتوسط بين اوروبا وافريقية فضلا عن دخولها تحت حكم المسلمين فترة طويلة من الزمان ،

ثم احتفاظها بنسبة كبيرة من سكانها المسلمين وبحضارتها العربية في عصر النورمان الذين خلفوا العرب في حكم الجزيرة وقد ترجم في صقلية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين كثير من الكتب العربية ، ففي سنة ١١٥٠ م ترجم ايوجونيوس البالرمي كتاب بطليموس السكندري في المراتب عن اللغة العربية وفي سنة ١١٦٢ م ترجم عن اللغة العربية كتب اخرى في الفلك والرياضيات واشتهر من المترجمين في القرن الثالث عشر فرج بن سالم اليهودي المتوفى سنة ١٢٨٥ م وهو من اصل صقلي طلب العلم في سالرنو حيث ترجم كثيرا من كتب العرب الى اللاتينية ، وقد ساعد الامراء والحكام في صقلية في عهد النورمان العلماء والمترجمين وشجعوهم في حركة نقل الكتب الى اللاتينية .



هوامش البحث

- (١) عن جزيرة صقلية انظر : ابن حوقل : صورة الارض ص ١١٢ - ١١٦
ياقوت : معجم البلدان ، الادريسي : نزهة المشتاق في اختراق الافاق (المكتبة الصقلية)
ص ٢٨ وما بعدها .
- (٢) البلاذري ، فتوح البلدان ق ١ . ص ٢٧٨ .
- (٣) البلاذري ، المصدر السابق القسم نفسه والصفحة نفسها ، فازليف : العرب والروم ص ٦٢ - ٦٤ ، صابر دياب : سياسة الدول الاسلامية في حوض البحر المتوسط ص ٧٤ - ٧٥ ، ابراهيم على طرخان : المسلمون في أوروبا ص ٥٦-٥٧ .
- (٤) احمد توفيق المدني : الاسلام والحضارة العربية ص ٢٥٧ .
- (٥) حامد زيان : تاريخ الحضارة الاسلامية في صقلية ص ١٧ .
- (٦) احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٥٨ - ٥٩ .
- (٧) احمد توفيق المدني : نفس المرجع ص ٦٠ .
- (٨) السيد الباز العريني : الدولة البيزنطية ص ٢٦٩ .
- (٩) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ١٢٢ - ١٢٤ .
حامد زيان : المرجع السابق ص ٢٠ .
- (١٠) انظر : النويري نهاية الارب (المكتبة الصقلية ص ٤٢٧ - ٤٢٨) .
احسان عباس : المرجع السابق ص ٢٢ - ٢٣ .
- (١١) ابن الاثير : الكامل ج ٦ ص ١٢٤ انظر ايضا : مدمود اسماعيل عبد الرزاق في الاغلبة (١٨٤ - ٢٩٦ هـ) سياستهم الخارجية ص ١٩٠ - ١٩٢ .
- (١٢) ابن عذارى : البيان المعجب في أخبار المغرب (المكتبة الصقلية ص ٣٥٥) وايضا ابن الاثير ص ١٢٤
- (١٣) النويري : نهاية الارب (المكتبة الصقلية ص ٤٢٩) .
- (١٤) حامد زيان : المرجع السابق ص ٢٦ .
- (١٥) محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ص ٢٥٨ .
- (١٦) محمد كرد علي : المرجع السابق ص ٢٦٣ .
- احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٢٠٩ - ٢١٠ .
- (١٧) سعيد عاشور : أوروبا المصور الوسطى ج ١ ص ١٢٥
- (١٨) حامد زيان : المرجع السابق ص ٤٥

- (١٩) احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٢٠٩ .
- (٢٠) حامد زيان : المرجع السابق ص ٤٦ .
- (٢١) احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٢٠٩ .
- (٢٢) حامد زيان : المرجع السابق ص ٤٦ .
- (٢٣) احسان عباس : المرجع السابق ص ٧٢ .
- (٢٤) احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٢١٠ ، سعيد عاشور : النهضة الأوروبية ص ٣٢٥ ، ارشيبالد لويس : القوى البحرية ص ٢٣١ .
- (٢٥) ابن العوام الاشبيلي : كتاب الفلاح (المكتبة الصقلية ص ٥٤٥ - ٥٤٧) .
- (٢٦) الادريسي : نزهة المشتاق (المكتبة الصقلية ص ٧٣) .
- (٢٧) سعيد عاشور : النهضة الأوروبية ص ٣٢٥ .
- محمد كرد علي : المرجع السابق ص ٢٦٣ ، احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٢١١ .
- (٢٨) ارشيبالد لويس : المرجع السابق ص ٢٣١ - ٢٣٢ ، احسان عباس : المرجع السابق ص ٧٤ .
- (٢٩) احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٢١١ ، محمد كرد علي : المرجع السابق ص ٢٦٣ .
- (٣٠) ابن حوقل : كتاب صورة الارض ص ١٣١ .
- (٣١) احسان عباس : المرجع السابق ص ٧٤ .
- (٣٢) ابن حوقل : المصدر السابق ص ١٢٢ - ١٢٣ .
- (٣٣) احسان عباس : المرجع السابق ص ٧٤ .
- (٣٤) الادريسي : نزهة المشتاق (المكتبة الصقلية ص ٢٢ - ١١١) .
- (٣٥) حامد زيان : المرجع السابق ص ٥٠ - ٥١ .
- (٣٦) الادريسي : نزهة المشتاق (المكتبة الصقلية ص ٢٢ - ٢٤) .
- (٣٧) حامد زيان : المرجع السابق ص ٥١ .
- (٣٨) المرجع السابق ص ٥٢ .
- (٣٩) ابن حوقل : كتاب صورة الارض ص ١١٩ .
- (٤٠) جمال الدين الشيال : في التاريخ (فصل من كتاب اثر العرب والاسلام في النهضة الأوروبية) ص ٣٧٩ .
- (٤١) ابن حوقل : كتاب صورة الارض ص ١٢٠ .

- (٤٢) ان حوقل : المصدر نفسه والصفحة نفسها .
- (٤٣) احسان عباس : المرجع السابق ص ٨٨ .
- (٤٤) ابن حوقل : المصدر السابق ص ١٢٦ .
- (٤٥) المصدر السابق ص ١٢٧ .
- (٤٦) حامد زيان : المرجع السابق ص ٥٤ - ٥٥ .
- (٤٧) احسان عباس : المرجع السابق ص ٩٨ .
- (٤٨) المرجع السابق ص ٩٩ - ١٠٠ .
- (٤٩) المرجع السابق : ص ١٠١ .
- (٥٠) ياقوت الحموي : معجم البلدان (المكتبة الصقلية ص ١١٣ - ١١٤) .
- (٥١) احسان عباس : المرجع السابق ص ١٠٣ - ١٠٤ احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٦٢ - ٦٣ .
- (٥٢) احسان عباس : المرجع السابق ص ١٢٠ .
- (٥٣) المرجع السابق ص ١٢١ - ١٢٢ .
- (٥٤) محمد كرد علي : المرجع السابق ص ٢٧١
- (٥٥) حامد زيان : المرجع السابق ص ٥٩ - ٦٠ .
- (٥٦) الادريسي : نزهة المشتاق (المكتبة الصقلية ص ٢٨) .
- (٥٧) احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٤٢
- (٥٨) احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٤٢ - ٤٣ .
- (٥٩) زيجفريد هونكه : شمس الله على الغرب ص ٣١١ .
- (٦٠) انظر : الادريسي : نزهة المشتاق (المكتبة الصقلية) جمال الدين الشيال : في التاريخ ص ٣٧٩ - ٣٨٠ محمد كرد علي : المرجع السابق ص ٢٦٨ .
- (٦١) ابن جبير : الرحلة ص ٢٧١ عبد القدوس الانصاري : مع ابن جبير في رحلته ص ٢٧٣ .

(٦٢) زيجفريد هونكه : المرجع السابق ص ٣٢٩ .

(٦٣) المرجع السابق ص ٢٥١

(٦٤) بول كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة ، ترجمة وتقديم احمد دراج ص ٩٤ - ٩٥ عن العلاقات بين الامبراطور فردريك الثاني والملك الكامل انظر مقال دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : الامبراطور فردريك الثاني والشرق العربي المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ١١ سنة ١٩٦٣ م ص ١٩٥ - ٢١٣ .

